ورقة د.شريبط أحمد شريبط



الحاج الباهي البوني
ومخطوط «مائة ليلة وليلة»

1 - بصدد تحقيق الاسم :

يزخر تاريخ عنابة الثقافي بعلامات ثقافية خصبة وراقية. وقد بلغت سمعة العديد ممن سكنوها الآفاق، وأثروا الفكر الانساني، ويكفي أن نشير إلى موضوع تأثير تفكير عالمها الفذّ : "القديس أغسطين" الذي استقطبت آراؤه الفكرية الكثير من أعلام الفكر الديني والنقدي في الغرب.

إذ تعد آراؤه التي تضمنتها مؤلفاته مصدرا أساسيا للكثير من الاتجاهات النقدية المعاصرة، كما أنها لا تزال مصدرا خصبا لمقروئية الكثير من أعلام الفكر النقدي الجديد في الغرب، ومنهم الناقد الروسي الكبير "ميخائيل باختين"، والأديب المنظر السيميائي الإيطالي "امبرتو إيكو".

فمن هنا، رأينا أنه من واجبنا أن ننقب ونبحث في ذاكرة "بونة" الثقافية عن علامات أعطت للإنسانية علامات من الفكر والنصوص الإنسانية.

وقد قادنا الاهتمام بذاكرة " بونة " الثقافية في فترة سابقة الى العثور على أسماء ونصوص أدبية وثقافية، تعد دلائل على مدى إقبال الإنسان الجزائري على المقروئية، والابتكار والإبداع في مجالات اهتمامات الإنسان.

ومن بين هذه العلامات التي جذبت اهتمامنا الكاتب " الحاج الباهي البوني "، الذي عاش في القرن الماضي وعاصر المرحلة الأولى من الاستعمار الفرنسي للجزائر.

وقد اعتمدنا على وثيقتين :

- الوثيقة الأولى :

عبارة عن رسالة خطية، يعود تاريخها إلى عام 1835 م، بعثها أحد تجار الكتب من مدينة باريس إلى شخصية ثقافية من مدينة عنابة، نظن أنه أحد أبناء الحاج الباهي البوني.

- الوثيقة الثانية :

ورد ذكر اسمه بهذه الصيغة "الحاج الباهي البوني "في مخطوط" مائة ليلة وليلة".

وقد أفضى البحث إلى النتيجة التالية : إن شخصية الحاج الباهي البوني التي ذكرت في رسالة المستشرق "إيدموند كمباريل"، هي نفسها شخصية الحاج الباهي البوني التي ذكرت في المخطوط مرارا، كما تبين لنا أن هذا العلامة كان مولعا بالكتاب والقراءة، والإقبال على نسخه وجمعه والحفاظ عليه.

وتبين الرسالة التالية التي تنشر لأول مرة -حسب علمنا- مدى إقبال أهالي مدينة عنابة على طلب المعرفة، ونوعية الكتب التي يقبلون عليها، كما تبين بعض أعلام المدينة في القرن الماضي.

نص الرسالة

"الحمد لله وحده

في يوم (26) من شهر جوليات النصارى، كتب في باريس المحروسة إلى حضرة السيد العزيز الحبيب محمد الأخضر بن الحاج حفظه الله السلام عليكم تسليما من عند العبد الفقير

الراجي إلى رحمة ربه "إيدموند كمباريل" المصور أنه مرامه إليكم ومراده إلى حفاظكم ودوام سلامتكم الغالية.

أما بعد، نخبركم يا حبيبي أن ما جاتني برايتك في وقت وصولها لباريز السبب كنت غايب عن المدينة، وهذا سبب سكتتي عليكم، فمن قليل قبلتها وجهدت حينئذ في الجواب إليكم واني مشتاق إلى خبر من عند السيد العزيز الزكي الحاج الباهي أدامه الله سلاما وتفضل علي تعرفني بحاله، وأما أنت يا حبيبي نحسب تغفر لي دوام إليك من سبب ما قدرت عليه، ونرجى أن ما تقطع البراوات بيني وبينك فأما ما طلبته مني أنه ما صبت في باريز كتاب الحريري كامل في دكاكين الكتب إنما موجود نصفه بثمن خمسة وثلاثين فرنك وهذا النصف هو الجزء الثاني وأما سيرة عنتر العبسي أنه ما طبع منه غير منتخبات كانت عندي وقت حضوري في بلادكم وأما كتب الجارومية أرسل إليك ثلاثين ومنهم واحد هديتا لك وواحد لسيدي الحاج الباهي وواحد لسيدي عبد الرحمن بوطريف، وأما ثمن الآخرين تروح إلى البشطة وتأمر كاتب البشطة برسالته إلي إنما تدفع منه ثمن حمله إلى باريز كما يقول لك وترسللي في برايتك طرف الكتاب إلي يعطيك من شاني وتعمل كذلك كلما يكون بيني وبينك إرسال الدراهم في استقبال الزمان، وأما ثمن الجارومية فثمن كل واحدة من نسخاتها مكتوب فيها بالفرنصيص وهو بخمسة عشر سلدي، وتاخذ من كل واحدة تبيعها أربعة سلدي ونصف من شان تعبك ويبقى عشرة سلدي ونصف تدفع به حمل الدراهم منك إلي في دار البشطة وما ترسل لي الدراهم إلا بعد أن يكون عندك جملة منها بمثل يكون ثمن عشرين نسخات أنه بجملته عشرة فرانك ولو أنت إيش حالك وحال أحبابك وايش خبر في عنابة الخضرا واش حال سي بوطريف والحاج الباهي وسلم لي عليهم وعلى سي علي بن محمد وابراهيم بن نوح كذلك وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

العبد الفقير المصور كمباريل

سنة 1835

2 - مقدمة المخطوط:

يتوفر التراث الجزائري على مخطوطات كثيرة في جل المعارف الإنسانية، ويعد التراث السردي من أهم الميادين التي أولاها المثقفون الجزائريون منذ القديم اهتماما كبيرا. فمن ذلك أن أول نص روائي حظي بشهرة عالمية قديما هو رواية "الحمار الذهبي" لمؤلفه أبوليوس، إذ يعود هذا النص إلى القرن الثاني الميلادي. كما يحفل التراث الجزائري الحديث بنصوص سردية كثيرة، لم يزل معظمها مخطوطا، وفي منأى عن يد الباحثين والدارسين. وقد تمكن بعض الباحثين الجزائريين من تحقيق بعض هذه النصوص وإصدارها من أجل أن تأخذ مكانتها ضمن مسار السردية الجزائرية.

ويعد نص "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" وما جرى لابن الملك الشايع الصيت مع زهرة الأنس بنت التاجر، لمؤلفه محمد بن إبراهيم من أهم النصوص العربية الحديثة، حيث يعود تاريخ كتابة هذه الرواية إلى عام 1266 هـ، وذكر المؤلف ذلك في القصيدة الطويلة التي ختم بها روايته، فقال:

تميت نظام وختمت حكايتي وشرحت حديثي سطر بسطر

في عام ستة بعد ستون ومائتين وألف جمادى الأول يوم الآخر. ووصف الدكتور أبو القاسم سعد الله استقبال النقاد لهذا المخطوط بقوله: "هذا، وإني سعيد أن هذا العمل الأول قد وجد رواجا طيبا، وتناوله بعض النقاد بالدراسة وحاول بعضهم أن يقيمه ليرصد مكانه في الإنتاج الوطني من جهة، والنتاج العربي القومي من جهة أخرى. وقد خرج بعضهم برأي مفاده أن رواية حكاية العشاق

(إذا نظرنا إليها كذلك) تعد أول رواية عربية بالمعنى الحديث، أي قبل رواية "زينب" المصرية التي يؤرخ بها النقاد في العادة لظهور الرواية العربية الحديثة، والفارق الزمني بين "حكاية العشاق" و"زينب" نصف قرن. وعدّها الدكتور عمر بن قينة في كتابه "دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة"، أول نص روائي عربي يظهر حديثا وسبق ظهوره بنحو ستين سنة تأليف رواية محمد حسنين هيكل "زينب". وقد ورد ذلك في قوله: "... فإن كان ذلك ممكنا تكون الرواية العربية الحديثة قد ولدت في الجزائر في منتصف القرن التاسع عشر، قبل ميلادها بأكثر من ستين سنة، الذي لا نزال نؤرخ له برواية "زينب" للدكتور محمد حسين هيكل، سنة 1914".

يستخلص من هذا أن التراث الجزائري يحفل بكثير من النصوص والآثار الأدبية القيمة وغيرها، كما أن اكتشاف نصوص أدبية جديدة سيمكننا من إعادة تقويم المسار الثقافي في الجزائر.

ولقد قادنا البحث إلى العثور على نص مخطوط يحمل عنوان "مائة ليلة وليلة"، يعد من أهم الآثار السردية المغاربية، ويعود تاريخ ظهوره إلى مرحلة تاريخية متقدمة عن المرحلة التي ظهر فيها نص "ألف ليلة وليلة" في المشرق العربي، كما أن الباحثين والمهتمين بالتراث -العرب منهم والأجانب- أجمعوا على مغاربيته واسبقية ظهوره. وقد علل الباحث الأديب الدكتور محمود طرشونة سبب بقائه مجهولا، وعدم إقبال المغاربة على قراءته وتداوله والإقدام على نسخه في قوله : "ويروى في المغرب العربي أن كل من يروي حكايات في النهار لا بد أن يصاب أبناؤه أو بناته بالقرع، فلعله لهذا الوهم أيضا بقي كتاب "مائة ليلة وليلة" مخطوطا قرونا عديدة إلى أن اكتشفه قودفروا ديمومبين (Gaudefroy.M Demombynes) المستشرق الفرنسي - أيضا - ونشره لأول مرة بالفرنسية سنة 1911".

ويمكننا أن نضيف إلى هذا الرأي - رغم عدم إيماننا بمثل هذه السلوكات والمعتقدات الغريبة - عوامل أخرى، أهمها العوامل الثقافية والاقتصادية، وقلة إمكانات الطبع، كما أن "خرافة" إصابة الإنسان الذي يقص حكايات في النهار بداء القرع حديث ذائع ومنتشر في البيئات المغربية، وخصوصا في البيئات الفقيرة والمجتمعات الريفية، ويمكن تعليل ذلك بحرص أهالي هذه البيئات الشعبية على الوقت، وانصرافهم طوال النهار إلى الاهتمام بوسائل عيشهم من حرث وجني وتجارة.. الخ. وقد تفطن سارد الحكايات الشعبية، فجعل عنوانها مرتبطا بجزء من اليوم يخلد فيه الإنسان إلى الراحة والنوم، استعدادا لمتاعب ومشاق جديدة، وهكذا آثر أن يطلق على هذا النوع من الحكايات اسم "مائة ليلة وليلة" و"ألف ليلة وليلة"... الخ.

3 - نسخ كتاب مائة ليلة وليلة :

يذكر الدكتور محمود طرشونة في فقرة "وصف مخطوطات الكتاب" ما يلي : توجد لكتاب "مائة ليلة وليلة" خمس نسخ، ثلاث منها بالمكتبة الوطنية بباريس، واثنتان بالمكتبة الوطنية بتونس . ولم يؤرخ فيها إلا نسختان اعتمدنا أقدمهما أساسا لهذا التحقيق :

- الأولى توجد بالمكتبة الوطنية بباريس، وهي مسجلة تحت رقم 2662 ؛ وقد أثبت في آخرها تاريخ صفر 1190 / مارس 1776... ولم يذكر ناسخها، وإنما اسم مالكها، وهو الحاج محمد بن الحاج حميدة. ويظهر أن اسم الأب تونسي وبذلك تكون هذه النسخة تونسية الرواية والتدوين.

- الثانية، وهي موجودة بالمكتبة الوطنية بتونس، وهي مسجلة تحت رقم 4576، ومؤرخة في جمادى الثانية 1268 / أفريل 1852، أي يفصلها عن الأولى ما يقرب من 78 سنة، وذكر اسم مالكها، وهو عبد الجليل الصالحي".

يستنتج من كلام الدكتور طرشونة أن عدد نسخ الكتاب خمسة، وهذا يعني أنه لم يشر إلى نسخة الحاج الباهي البوني التي اطلعنا عليها منذ مدة .

وقد دفعنا هذا الأمر - خدمة، للبحث العلمي وإحياء للتراث المغربي - أن نولي هذه النسخة اهتماما خاصا من جهدنا، والعمل على إخراجها، وذلك لما تميزت به من دقة، وصحة نسب، واكتمال وقدم أيضا. وسنبين كل ذلك فيما يلي :

أ - وجود اسم ناسخ المخطوط :

يتضح من التعليقات العديدة التي تتواتر على صفحات مخطوط "مائة ليلة وليلة" صحة اسم الناسخ، فقد كرر كتابة اسمه عدة مرات. ومن هذه التعاليق التي تبرز اسمه ونسبته إلى أهالي "بونة" التعليق التالي الذي ورد في الورقة رقم 38، حيث كتب في الحاشية ما يلي : " فإن كان المدى، فنعم الصحيح، إن ذكر إلا إجابة، والإفلات من الإجابة الجواب، تأمل. كتبه الباهي وفقه الله، إذا كانت الإجابة لمعنى الأولى" .

ويعبر التعليق التالي الذي ورد في الورقة رقم 148 عن اسمه الكامل، يقول : "الذي أعتقده وأدين الله به أن سيدنا معاوية - رضي الله تعالى عنه - حاشاه أن يصدر منه هذا، بل هذا كله كذب وبهتان، حاشا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أن يقع منهم مثل هذا، تأمل ذلك

بإنصاف. كتبه الفقير لربه الحاج الباهي البوني وفقه الله... سنة 1257".

وتؤكد كذلك الرسالة التي أرسلها تاجر الكتب المستشرق إيدموند كمباريل المصور من باريس إلى محمد الأخضر بن الحاج ، مالك نسخة المخطوط، صحة وجود اسم الحاج الباهي البوني، حيث أورد اسمه ضمن مجموعة من أسماء الشخصيات التي كانت تقيم آنذاك في مدينة عنابة، ويعبر كلامه التالي عن ذلك : "واش حال سي بوطريف، والحاج الباهي، وسلم لي عليهم، وعلى سي علي بن محمد وإبراهيم بن نوح...".

نستخلص مما ورد أعلاه أن الحاج الباهي البوني هو الذي قام بنسخ مخطوط "مائة ليلة وليلة"، وأن هذه النسخة التي اطلعنا عليها غير النسخ التي ذكرها الأديب الدكتور محمود طرشونة في مقدمة تحقيقه لكتاب "مائة ليلة وليلة".

ب - تاريخ نسخة بونة :

أثبت الناسخ الحاج الباهي البوني في نهاية نص "مائة ليلة وليلة" العبارة التالية : "كمل بحمد الله تعالى، وحسن عونه، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم في العاشر من ذي القعدة، سنة سبع وخمسين ومائتين وألف، كتبه الباهي وفقه الله...". وإذا قمنا بعملية حسابية، تبين لنا أن التاريخ الهجري الذي أثبته البوني يصادف سنة 1836 الميلادي، وهو الزمن الذي يجعل نسخة الحاج الباهي البوني تتبوأ المرتبة الثانية، بعد النسخة الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس، التي يرجع تاريخها إلى عام 1776 م.

ويمكننا أيضا أن نذهب إلى عكس ما ذهب إليه الدكتور محمود طرشونة، حيث نسب مخطوط "ألف ليلة وليلة"، الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 3662، إلى إحدى الشخصيات التونسية، مؤسسا ما ذهب إليه على علامية اسم مالكها، فهو يقول : "... ولم يذكر ناسخها، وإنما ذكر اسم مالك النسخة، وهو الحاج محمد بن الحاج حميدة ويظهر أن اسم الأب تونسي، وبذلك تكون هذه النسخة تونسية الرواية والتدوين". إذ أننا نرى ورود اسم " حميدة " لا يعد دليلا كافيا على نسبة مالك النسخة إلى تونس، ثم إننا نولي لصيغة الناسخ أهمية علمية أقوى من صيغة "المالك"، كما أن هذا الاسم "حميدة" متداول بين المدن الجزائرية والمغاربية بصورة عامة.

ومن هنا، فإننا نرى أن اسم الناسخ الأول لهذا الكتاب التراثي الهام لا زال في حاجة إلى تدقيق أعمق وتمحيص أمتن، كما أن العوامل التاريخية والجغرافية لدول منطقة المغرب العربي قد ساعدت على انصهار أسرها وتفاعلها .

ج - محتوى الكتاب :

يتضمن المخطوط بنسخته الجزائرية النص الكامل لقصة مائة ليلة وليلة، وورد من الورقة 168 إلى الورقة 309، كما تضمن إلى جانب هذه القصة التراثية المغربية عشر قصص تفاوتت في الحجم والموضوع. أثبت الناسخ الحاج الباهي البوني تسع قصص تامة قبل نص قصة مائة ليلة وليلة، وأورد قصة مطولة غير تامة بعدها، بعنوان" آه على ما فات". الخاتمة :

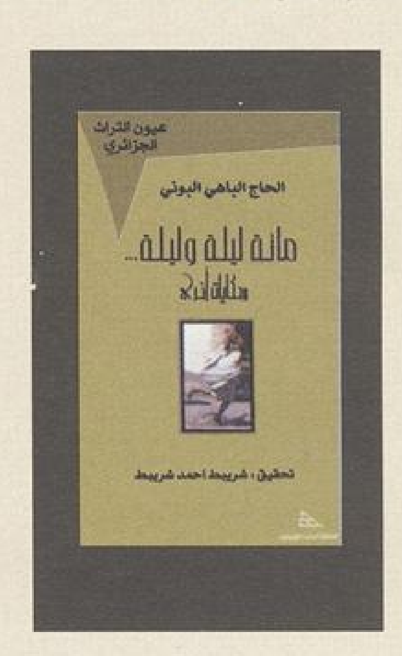
يمكننا أن نستخلص النتائج التالية :

1- لقد كان المثقفون الجزائريون يولون حقل السرديات اهتماما كبيرا وكانوا يسعون إلى استنساخها وتداولها.

2 - أن نسخة "مائة ليلة وليلة "الجزائرية تتوفر على قصص لم تتضمنها النسخ الأخرى.

3 - استعمل الحاج الباهي البوني مصطلح "القصة" بدل مصطلح "حكاية"، كما أن النصوص التي تضمنها هذا المخطوط تناولت موضوعات متنوعة تاريخية وسياسية.

4 - لقد كتب المخطوط بخط مغربي جميل وواضح، كما زينت الصفحات بعدة ألوان بديعة لا تزال محافظة على آثارها ورونقها رغم تقادم الزمن ■



مقطع من قصة
السيد معاوية بن أبي سفيان مع الشيخ

قيل جلس معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه في مجلس كان له بدمشق، وكان ذلك الموضع مفتح الجوانب يدخل منه النسيم، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات، وكان يوما شديد الحر لا نسيم فيه، وكان وسط النهار، وقد لفح الهجير إذ نظر لرجل يمشي نحوه، وهو يتلظى من حر التراب، ويحجل في مشيته حافيا راجلا، فتأمله معاوية، وقال لجلسائه : هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في مثل هذه الساعة، فقال بعضهم : لعله يقصد أمير المؤمنين، فقال : والله إن كان قصدني سائلا لأعطينه أو مستجيرا أجرته، أو مظلوما نصرته، يا غلام، قف بالباب فإن طلبني هذا الأعرابي، فلا تمنعه الدخول علي، فخرج الغلام فوافى الأعرابي، فقال له : ما تريد، قال : أمير المؤمنين، قال : ادخل، فدخل وسلم على السيد معاوية، فرد عليه السلام، وقال له : ممن الرجل، قال : من تميم، قال : ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت ؟ قال : جئتك شاكيا وبك مستجيرا، قال : ممن؟ قال : من مروان بن الحكم عاملك، ثم أنشد الأعرابي وجعل يقول :

معاوية يا ذا الفضل والجود والحلم
ويا ذا الندا والخير والرشد والنبل
أتيتك لما ضاق في الأرض مذهبي
فيا غوث لا تقطع رجائي من العدل
وجدلي بإنصاف من الجائر الذي
بلاني بشيء كان أيسره قتلي
سبا لي سعادي وأسرى لحضرتي
وجار فلم يعدل وغاصبني أهلي
وهمّ بقتلي غير أن منيتي
تناءت ولم أستكمل الرزق من أجلي

فلما سمع السيد معاوية انشاده والنار تتوقد من فيه، فقال : مهلا يا أخا العرب اذكر قصتك وافصح، قال : يا أمير المؤمنين كانت لي زوجة وهي ابنة عمي، وكنت لها محبا، وبها كلفا، وكنت بها قرير العين، طيب العيش، وكانت لي صرفة من الإبل، كنت أستعين بها على قيام حالي وكفاف أودي، فأصابتنا سنة ذات حطمة شديدة، ذهبت بالحافر والظلف، وبقيت لا أملك شيئا، فلما قل ما بيدي وذهب مالي، وفسد حالي، بقيت مهانا ثقيلا على وجه الأرض، وقد أبعدني من كان يشتهي قربي، وازور عني من كان يرغب في زيارتي، فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال، وشر المثال، أخذها مني وجحدني وطردني، وأغلظ علي، فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم، مستصرخا به، راجيا نصرته، فأحضر أباها وسأله عن حالي، فقال : ما أعرفه قبل اليوم أصلح الله الأمير، فأمره أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها، فبعث إليها مروان، وأحضرها، فلما وقفت بين يديه، وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصما وعلي منكرا، فانتهرني، واظهرني الغضب، وبعث بي إلى السجن، فبقيت كأنما خزرت من السماء في مكان سحيق، ثم قال لأبيها : هل لك أن تزوجها مني على ألف دينار وعشرة آلاف دينار لك، وأنا ضامن لك في خلاصها من هذا الأعرابي، فرغب أبوها في البذل، وأجابه إلى ذلك، فلما كان من الغد بعث إلي وأخرجني من السجن وواقفني بين يديه، ونظر إلي كالأسد الغضبان، وقال : يا أعرابي طلق سعدى، قلت لا، فسلط علي جماعة من غلمانه وأخذوني يعذبوني بأنواع العذاب، فلم أجد بدا من ذلك، ففعلت، فعاودني إلى السجن، فمكثت فيه إلى أن قضت عدتها فتزوجها، ودخل بها، وقد أتيتك راجيا وبك مستجيرا وإليك ملتجئا وانشد يقول :

في القلب مني نار
والنار منها استعار
والجسم مني سقيم
فيه الطبيب يحار
وفي فؤادي جمر
والجسم فيه شرار
والعين تهطل دمعا
فدمعها مدرار
وليس إلا بربي
ثم الأمير انتظار

ثم اضطرب واشتكى وخر مغشيا عليه، وأخذ يتلوى كالحية المقتولة، فلما سمع السيد معاوية رضي الله عنه كلامه وإنشاده، قال : تعدى وظلم ابن الحكم، في حدود الدين واجترى على المسلمين، ثم قال : والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديث لم أسمع مثله، ثم دعى بدواية وقرطاس وكتب إلى مروان بن الحكم، قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك وانتهكت حرمة من حرمة المسلمين، وتعديت في حدود الدين، وينبغي لمن كان واليا أن يغض بصره عن شهواته ولذاته، ثم كتب إليه بعد كلام اختصرته هذه الأبيات :

وليت ويحك أمرا لست تدركه
فاستغفر الله من ذنب أمرئ زاني
وقد أتاني الفتى المسكين منتحبا
يشكو إلينا بث ثم أحزاني
أعطي الإله يمينا لا أكفرها
نعم وابرأ من ديني وإيماني
إن أنت خالفتني فيما كتبت به
لأجعلنك تحما بين عقباني